Bible Study

The Book of Genesis

Chapter 18

سفر التكوين - الاصحاح الثامن عشر

Fr. Jacob Nadian
St. Bishoy Coptic Orthodox Church

الاصحاح الثامن عشر: بركات استضافة الله والملائكة في قلوبنا وحياتنا

"وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار. فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض" [1 - 2]

- إذ دخل إبراهيم في عهد مع الله إنما دخل إلى صداقة أعمق يعتز الله بها فيدعوه خليله، ففي حديثه مع إسرائيل يقول: **"وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي" (إشعياء 41: 8)**، اللقب الذي استخدمه يهوشافاط في حديثه مع الله حينما سأله العون لشعبه (2 أيام 20: 7)، أعلنه يعقوب الرسول بقوله عن إبراهيم: **"دعى خليل الله" (يعقوب 2: 23)**.
- هذه الصداقة الفريدة تظهر في مواقف كثيرة تكشف عن حب الله ومعاملاته مع أولاده. الآب يظهر الله بملاكيه لإبراهيم ليستضيفهم عند الظهيرة في بلوطات ممرا، فيعده الله بإسحق، ويدخل معه في حوار مفتوح من جهة سدوم وعمورة.
- وجاء هذا اللقاء التاريخي يمثل لقاءً روحيًا حقيقيًا تتمتع به كل نفس تتمثل بأب الآباء إبراهيم، تدخل مع الله في صداقة حب صادقة، وتجلس عند باب خيمتها عند بلوطات ممرا، لتستقبل في داخلها رب السماء وملائكته، فتكون هيكلاً لله تعلن ملكوت السموات في داخلها.

- لكي نتقبل الرب فينا، لنخرج إلى باب الخيمة ونجلس هناك عند بلوطات ممرا في وقت الظهيرة نستظل بأشجار البلوط. ما هو الخروج من الخيمة إلاَّ انطلاق النفس خارج شهوات الجسد، فلا تحبس الشهوات الشريرة النفس في داخلها لترتبك بالملذات والاهتمامات، بل تنطلق كما في حرية ليعيش الإنسان روحانيًا لا جسدانيًا، يخضع الخيمة لنفسه لا تخضع نفسه لثقل الخيمة.

- لا يكفي الخروج إلى باب الخيمة إنما يلزم الجلوس عند شجر البلوط أي عند الصليب في وقت الظهيرة لنتأمل جراحات الرب المرتفع على الصليب وقت الساعة السادسة، مرددين ما نقوله في القداس الإلهي: "ارسمي يا نفسي جراحاته أمامك، واحتمي فيها عندما يهيج العدو عليكِ". أمام "ممرا" فتعني "رؤية" أو "بصيرة"، فبخروجنا بالروح القدس من ثقل شهوات الخيمة التي لنا، وجلوسنا عند البلوطة المقدسة، قائلين: "تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي" (نشيد 2: 3)، ننعم بممرا أي برؤية الله واستنارة البصيرة الداخلية.

- يعلق الأب قيصريوس أسقف Arles على لقاء الله مع إبراهيم عند بلوطات ممرا، قائلاً: [أترى أي موضع يمكن أن تُقام فيه وليمة للرب؟ لقد استنارت رؤية إبراهيم وبصيرته (ممرا = رؤية أو وبصيرة)، فكان قلبه نقيًا يرى الله. إنه في مثل هذا الموضع وفي مثل هذا القلب يمكن للرب أن يجد وليمة].

- يرى بعض مفسري اليهود أن هذا اللقاء تم بعد الختان بثلاثة أيام، وأن الرب جاء ليشفي إبراهيم من جرحه؛ إن صح هذا القول فإن الختان وهو رمز المعمودية التي نتممها باسم الثالوث القدوس إنما هو طريق دخولنا إلى الصداقة الإلهية، خلالها يشتهي الله أن نستقبله في خيمتنا التي تتقدس بروحي القدوس فيجد فينا وليمته المبهجة، ويسمع صوتنا: **"ليأت حبيبي إلى جنته ويأكل ثمره النفيس" (نشيد 4: 16)**. بفرح يدخل إلى قلوبنا وهكذا تتحول خيمتنا إلى مركز راحة للرب يجد لذته في بني البشر.

- يقول القديس مقاريوس الكبير: [القلب هو قصر السيد المسيح، فيه يدخل الملك لكي يستريح، ومعه الملائكة وأرواح القديسين، هناك يقطن ويتمشى في داخله ويقيم مملكته]. تتحول خيمتنا إلى جنة يفرح بها الرب العريس.

- ويقول القديس اغريغوريوس أسقف نيصص: [هذا هو الذي أعدت له العروس مائدتها. أما المائدة فهي جنة مغروسة، أشجار حية، وأما الأشجار فهي نحن، والثمر الذي نقدمه هو نفوسنا... الطعام المعد هو خلاصنا، والثمر هو إرادتنا الحرة التي تقدم لله نفوسنا كأنها ثمر يُجنى من الغصن].

- ليتنا نقف مع إبراهيم عند باب الخيمة لنستضيف الرب إلى خيمتنا بكونها قصره وجنته، لنقدم له بإرادتنا الحرة (حياتنا المقدسة فيه) طعامًا يفرح قلبه!

- هذا واستضافة إبراهيم للرب وملاكيه جذبت أنظار رجال الله القديسين، فقال الرسول بولس: **"لا تنسوا إضافة الغرباء لأن بها أضاف أُناس ملائكةً وهم لا يدرون" (عبرانيين 13: 2)**.
- وتحدث الآباء بفيض عن عمل "إضافة الغرباء" كطريق حيّ لاستضافة الرب في خليقته. يقول القديس أمبروسيوس: [ربما يكون المسيح قادمًا في شخص الغريب، إذ هو يأتي في شخص الفقير كقوله: **"كنت غريبًا فاويتموني، عريانًا فكسوتموني، مريضًا فزرتموني، محبوسًا فأتيتم اليّ" (متي 25: 35، 36)**].
- ويقول القديس چيروم: [الهيكل الحقيقي للسيد المسيح هو نفس المؤمن، فلنزينه ونقدم له ثيابًا، لنقدم له هبات، لنرحب بالسيد المسيح الذي فيه!
- ما نفع الحوائط المرصعة بالجواهر إن كان المسيح في الفقير في خطر الهلاك بسبب الجوع].
- وقد كشف هذا اللقاء عن طبيعة إبراهيم السخية في العطاء، فكان يقدم قلبه قبل طعامه، ويستضيف الآخرين في داخله قبل أن يفتح لهم خيمته.
- ظهر ذلك بوضوح إذ **"ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض" [2]**، أي جرى إليهم وهو شيخ وسجد للتحية، إذ كان ينتظر من يستضيفه.

"يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة. فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم، فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت. فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقًا سميذًا، واعجني واصنعي خبز ملة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصًا وجيدًا وأعطاه للغلام فأسرع لعمله. ثم اخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة، أكلوا" [3 - 8]

- في أتساع قلب استضافهم إبراهيم إذ ظنهم أناسًا مسافرين، فسألهم أن يقبلوا غسل أقدامهم وأن يسندوا قلبهم بكسرة خبز بعد أن يستريحوا تحت ظل الشجرة ثم يرحلون... هكذا يتحدث في حب وشوق للعطاء بروح اتضاع، فيطلب أن يغسل أقدامهم وحسب أن ما يقدمه لهم إنما هو كسرة خبز علامة محبة بسيطة لا تُرفض.

- بدأ إبراهيم بغسل الأقدام، وكما يقول العلامة أوريجانوس: [لقد عرف أن أسرار الرب لا يمكن أن تجد كمالها إلاّ إن كنا على الأقل نغسل الأقدام].

- ويقول القديس أمبروسيوس: [حسن هو سر الإتضاع فإنني إذ أغسل أدناس الآخرين أغسل أدناسي].

- وكأن بداية الاستضافة هو غسل لا الأقدام وإنما الأدناس بغفران أخطاء الآخرين التي ارتكبوها ضدنا، بهذا إذ نغسل أدناسهم إنما نغسل أدناسنا نحن. ويلاحظ في هذه الوليمة الآتي: أولاً، عندما رأى إبراهيم الرجال "ركض" مع أنه كان شيخًا، لكنه في عمل الخير يركض مسرعًا كطفل يفرح بالعمل. وإذ قبل الرجال الدعوة "أسرع" إلى سارة وسألها أن تسرع في عمل الخير، وإذ أعطى العجل لغلامه أسرع لعمله... هكذا كان إبراهيم وزوجته وغلمانه، الكل يتسم لا بعمل الخير وحسب وإنما بالسرعة فيه، وكأنهم ينتهزون الفرصة لئلا تفلت من أيديهم. يقول العلامة أوريجانوس: [إبراهيم يجري، وزوجته تتعجل، والغلام يسرع، إذ لا يوجد كسل في بيت الحكيم].

- ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [لقد درَّب إبراهيم خدمه حسنًا أيضًا... لنفكر نحن أيضًا في خلاصهم، فمن واجبنا الاهتمام بمن يخدموننا أن يكونوا صالحين ويمارسوا الأعمال الإلهية]. هكذا كان بيت إبراهيم مباركًا، يعمل هو وزوجته وخدمه لحساب الرب بروح متيقظة وقلب ملتهب لا يعرف الخمول. إن كان إبراهيم يمثل النفس البشرية التي تنطلق خارج الخيمة لتجلس عند الصليب تستضيف الكل بالحب، فإن سارة تمثل الجسد المقدس في الرب الذي يقدم خبز ملة يفرح قلب الله.

- لقد اشتركت سارة مع إبراهيم في الضيافة، وهكذا يشترك الجسد مع النفس في حياة الاتحاد مع الله والسير بروحه القدوس. أما الخدام فيشيرون إلى طاقات الإنسان ومواهبه التي تقدم ذبائح حب لله كما قدم غلام إبراهيم.

- ثانيًا، سأل إبراهيم زوجته سارة أن تعجن ثلاث كيلات من الدقيق السميذ أي الدقيق الفاخر، فلا يقدم إبراهيم لضيوفه من الخبز القديم وإنما يود دائمًا أن يهب أفخر ما لديه، ومن عمل زوجته المسنة، وبكمية وافرة. أما الثلاث كيلات فربما تشير إلى "الإيمان والرجاء والمحبة"، هذه الأمور الثلاثة التي تعجنها الكنيسة لتقدم للرب في حياة أولادها خبزًا فاخرًا يُسر الله به.
- هذه هي تقدمة الكنيسة المستمرة، خاصة وأن هذه الأمور إنما تعجن بمياه الروح القدس. فبالروح القدس إذ يمتلئ القلب إيمانًا تنطلق النفس نحو عريسها السماوي، وبالرجاء تتخطى كل صعوبة وتمتلئ فرحًا، أما بالمحبة فتدخل إلى حيث عرش الله "الحب ذاته". هذا هو عجيننا الروحي غير المنفصل، الذي به نوجد في حضن الله كتقدمة حب له.
- "الخبز الملة" هو خبز يُصنع على حجارة محماة ويعتبر من الخبز النفيس (1 ملوك 19: 6)، فإن كانت سارة (الكنيسة) تقدم حياتنا عجينًا من ثلاث كيلات (الإيمان والرجاء والمحبة) فإن هذا العجين لا يصلح للأكل ولا يكون مفرحًا للرب إلاَّ خلال الحجارة المحماة، أي شركتنا مع الرب في آلامه، لنصير فيه خبز ملة. الآلام مرة وقاسية، لكنها مع الرب تتحول إلى أمجاد أو إلى تقدمة خبز نفيس لله.

- ثالثًا، إذ وضع إبراهيم الطعام أمامهم "كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة" [8]. لم يسرع إبراهيم وزوجته وغلمانه للعمل بسرعة وتقديم أفضل ما لديهم في استضافة الغرباء وإنما أيضًا وهو شيخ... كان لديه غلمان وعبيد وجواري، لكنه يقف بنفسه لخدمة الغرباء، أي حب مثل هذا؟!

- لنقف مع إبراهيم تحت شجرة الصليب نخدم الآخرين في اتضاع وبفرح، فإننا نخدم الرب نفسه فيهم!

- بالحب قدم إبراهيم وسارة أفضل ما لديهما للرب، وبالحب تنازل الرب ليقبل من الإنسان العطية التي في حقيقتها هي من عنده، وكما قال سليمان الحكيم أن ما يقدمه هو مما لله. وإذ لا يقبل الرب أن يكون مدينًا ردّ الحب بالحب، إذ سأل: "أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة إمرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام، وقد انقطع ان يكون لسارة عادة كالنساء" [9 - 11]

- لقد استضاف إبراهيم وسارة الرب، وها هو الرب يهب لهذين الشيخين المتقدمين في الأيام ابنًا، وكأنه يقيم من الموت حياة، ومن الحجارة أولادًا لإبراهيم.

- لقد وهبهما "إسحق" الذي يعني "ضحكًا". حقًا إنه ضحك، إذ يُقال عن سارة وهي عاقر ومسنة أنها أم، وأما ما هو أعظم فإنه خلال إسحق يأتي المسيّا المخلص حاملاً الجسد كابن له وهو ربه، فتتبارك به كل الأمم! إنه عمل إلهي فائق، وسرّ لا يمكن إدراكه! هذا هو الثمر الذي تمتع به إبراهيم أب الآباء وسارة خلال إيمانهما العامل بالمحبة.

- عندما سأل الرجال: "أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة" [9]، كان إبراهيم عند باب الخيمة، أما سارة فكانت في الخيمة وراء إبراهيم [10]، كان إبراهيم يمثل النفس المنطلقة في حرية الروح القدس خارج الخيمة أي فوق كل ضغوط الجسد، أما سارة فتشير إلى الجسد الذي يلزم أن يكون خلف النفس وليس أمامها، فيخضع الجسد لمطالب النفس في الرب، لا أن تخدم النفس مطالب الجسد. حينما يخضع الجسد للنفس المقدسة في الرب، يتحد الاثنان معًا لينجبا إسحق الذي يعنى "ضحكا" أو "فرحا"، فيكون الإنسان بكليته متهللاً، حاملاً ثمر الروح فيه. وحيث أنهما كانا شيخين متقدمين في الأيام؛ مع أن إبراهيم وسارة لم يعيشا سنوات طويلة كآبائهم السابقين، لكن هذه هي المرة الأولى التي فيها يوصف إنسان كشيخ متقدم في الأيام، بمعني الحكمة وتقدم الأيام في النعمة لا شيخوخة العجز وتقدم الأيام الذي يدفع إلى الموت.

"فضحكت سارة في باطنها، قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ؟! فقال الرب: لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الرب شيء؟! في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت. فقال لا: بل ضحكت" [12 - 15]

- يقول العلامة أوريجانوس: [الخاطي غير متقدم في الأيام إذ لا يفعل هذا: ينسى ما هو وراء ويمتد إلى ما هو قدام (فيلبى 3: 13)، وإنما على الدوام ينظر إلى الوراء، لهذا فهو لا يصلح لملكوت الله (لوقا 9: 62). على العكس إذ نمتد إلى قدام ونسعى نحو الكمال نكون متقدمين في الأيام]. لقد تقدم إبراهيم وسارة في الأيام، أي في النعمة لأنهما استضافا كلمة الله والملاكين، فصارت حياتهما سماءً، وتأهلاً للوعد بإسحق رمز المسيح، فحُسبا بحق شيخين حكيمين في الرب. ويرى القديس أكليمنضس الاسكندري أن سارة ضحكت ليس لعدم تصديقها للوعد، وإنما خجلت من الموقف، كيف تكون بعد أمًا لابن. ويرى القديس أغسطينوس أنها ضحكت من الفرح لكنها لم تكن مملوءة إيمانًا. لقد ضحك إبراهيم حين سمع الخبر وسجد للرب على وجهه (17: 17)، وضحكت سارة في باطنها (18: 12)، فانجبا إسحق، الذي يعني "ضحكًا"، حتى يذكرا عمل الله معهما كلما ناداه باسمه ممجدين الله الذي وهبهما نعمة تفوق حدود الطبيعة.

"ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشيًا معهم ليشيعهم. فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله. وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برًا وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدًا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليَّ، وإلاَّ فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما إبراهيم فكان لم يزل قائمًا امام الرب" [22 - 16]

- الله في صداقته مع الإنسان يود إلا يخفي عنه أسراره... "سرّ الله لخائفيه" (مزمور 25: 14).

- وكما قيل في عاموس: "إن السيد الرب لا يصنع أمرًا إلاَّ وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء" (عاموس 3: 7).

- إن كان الله يقيم إبراهيم كأمة كبيرة ويتمتع بمجيء السيد المسيح من نسله، هذا الذي به يتبارك جميع أمم الأرض، لذلك يتحدث معه في صراحة وانفتاح قلب، حتى يتعلم أولاده حياة الشركة مع الله وانفتاح قلبهم له.

- يظهر بشاعة ما بلغه الإنسان في شره، إذ صارت الخطايا تصرخ لتطلب القصاص من فاعليها، أو أن الأرض، الخليقة الجامدة، لم تعد تحتمل هذا الفساد فصارت تئن إلى الله ليقتص من الإنسان، ذلك كما فعل دم هابيل الصارخ إلى الله بسبب قسوة قايين (تكوين 4: 10)، وكصوت أجرة الحصادين المبخوسة حين تصرخ من ظلم أصحاب الحقول (يعقوب 5: 4).

- كانت سدوم وعمورة مدينتان بجوار البحر الميت أقام في أحدهما لوط؛ الأولى تعني "احتراق"، والثانية تعني "فيض (طوفان)". هكذا صارت سدوم وعمورة رمزًا للخطية التي تدفع الإنسان كما إلى الاحتراق بالنار أو الغرق بالطوفان.

أما تعبير "أنزل وأرى" فلا يُفهم بالمعنى الحرفي، فإن الله كائن في كل مكان، لكنه تعبير يناسب بشريتنا يكشف عن عدالة الله، لا يعاقب سريعًا إنما كمن ينتظر حتى ينزل ويرى بنفسه ما يفعله الإنسان... إنه مشغول بكل الحياة البشرية.

- نزل الله إلينا ليرى خطايانا... وكما يقول العلامة أوريجانوس: [لكي يحملها إذ يأخذ شكل العبد (فيلبى 2: 7)].

- إنه ينزل إلينا لكي يحمل أثقالنا المرة ويدفع ديننا، ويرفعنا معه كما فعل على جبل التجلي (مرقس 9: 2).

"فتقدم إبراهيم وقال: افتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم، حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين بارًا في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد. ربما نقص الخمسون بارًا خمسة، أتهلك كل المدينة بالخمسة، فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه ايضًا وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال لا يسخط المولى فاتكلم: عسى أن يوجد هناك ثلاثون، فقال: لا افعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني قد شرعت أكلم المولى: عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال: لا أهلك من أجل العشرين. فقال لا يسخط المولى فاتكلم هذه المرة فقط: عسى أن يوجد هناك عشرة، فقال لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه" [23 - 33]

- لم يتحدث إبراهيم مع الرب فيما يخصه هو أو زوجته في إنجابهما إسحق حسب وعد الله لهما، لكن كل مشاعر إبراهيم قد أُمتصت في هؤلاء الذين يتعرضون للهلاك، فيقف شفيعًا فيهم!

- إنها صورة حية للحب الناضج الذي فيه ينشغل الإنسان بخلاص أخوته، ويطلب عنهم أكثر مما لنفسه!، حتى وإن كان هذا الغير شريرًا ومستحقًا للموت.
- وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [ظهر إبراهيم بحق كمن يطلب من أجل أبرار مع أنه كان يطلب عن الجميع. إن نفوس القديسين رقيقة جدًا ومحبة للغير، محبة لخلاص نفسها كما لخلاص الغرباء].
- إن كان الله قد فتح باب الحوار مع خليله إبراهيم، فإن إبراهيم بدوره التزم بروح الاتضاع في حديثه مع الرب. وكما يقول القديس أغسطينوس: [عندما تحدث إبراهيم مع إلهه وأغلق باب الحديث أمامه في أمر حرق سدوم قال: **"أنا تراب ورماد"**. عظيم هو هذا الاتضاع الذي يتسم به القديسون العظماء].
- ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [لنتضع لكي نرتفع، فإن المجد الباطل يهوى بالإنسان تمامًا. هكذا انحط فرعون عندما قال: **"لا أعرف الرب" (خروج 5: 2)**، فصار أقل من الذباب والضفادع والجراد، وبعد هذا غرق هو وجيشه وخيله في البحر.
- على العكس إذ قال إبراهيم: **"أنا تراب ورماد"** غلب أممًا بربرية، وإذ سقط في يد المصريين (فرعون وحاشيته) رجع يحمل نصرة أكثر مجدًا من الأول، بالتصاقه بهذه الفضيلة نما مرتفعًا نحو العلو].
- ويقول القديس أمبروسيوس: [جلس أيوب في التراب فاقتنى كل ما فقده (أيوب 2: 8؛ 42: 10)].

وقال الله ليكن
نور فكان نور
(تكوين 1: 3)
God said,
"Let there be light"; and there was light (Genesis 1: 3)